

# حميد سعيد.. المورييسكي الذي لا يتعب

شاعر كشف معضلة القصيدة واستلهم تجربته من مرجعيات الحياة



شاعر أزال الغبار عما هو غامض

الكتابة الذي تخلفه قصيدة مروادة عن نفسها، لكن المراوغة، حتى قال عنها الكاتب عبد الحميد العلوجي، كما يذكر الشاعر بعد نشرها، "إن حميد سعيد يتغزل بامرأة جميلة ويريد أن يوهننا أنه يكتب عن تاميم النقط". ولم لا... حين تأتي التجربة من خلال حرائق المحبة... المرأة أو الإنجاز".

## حميد سعيد الإنسان

على هذا النحو تستمر الكتابة في مشوارها مع إبداع الشاعر حميد سعيد، في كتاب قاربت صفحاته على المئة، طباعة أنيقة، وعلى الغلاف الأخير نقرا سطورا بالغة الأثر والتأثير تتحدث عن حميد سعيد الإنسان، كتبها الموسيقار العراقي علي عبدالله.

قال عبدالله فيها "قائمة عراقية، عربية، انظر إليها من سفوح غربتي وغربته. كما كنت أتطلع إليه كمنارة من منارات بلادي المهيجة في الشعر والفن والأدب، وأتمنى شخصاً قصائد التي تحمل صفات الجمال من رقي ونبل ودوق. حين التقيت قبل أربعين عاماً تقريبا، واقتربت من رحابه الغنية، تعززت قنني بهارمونية العلاقة بين شخصية المبدع وشخصياته الواقعية، وبدت تلك الشخصيات تحمل بعضاً يسيرا من صفاته الحميدة المتعددة".

واضاف "رأيت خلال تلك الأربعين، إذا حضر، فهو محضر خير وطيب، وإن غاب يحضر محضر ذكر وطيب. كنت كلما خذلتني الدنيا، واسودت آفاقها، أذهب إليه، فأعود من رحابه مزهوا. تزدهر روحي قوة وسعادة، وتنت أسأل نفسي دائماً: كيف لرجل يمثل هذا النقاء، يجمع في أفاقه الواسعة إلا أن يكون منارة من منارات بلادي، إنه حميد سعيد. نهر من أنهار بلادي التي ترنو لتصب في شواطئ العرب".

التي لا تنتهي بين القصيدة وشاعرها. وقد كانت قصة يوسف مع امرأة العزيز إلهاماً له، إنها كما يقول "تستعير موقف المرأة التي راودت فتاها، لكنها لا تمزق قميصه من دبر وإنما توقعه على بابها ليلتين، وإن بنفر هناك ويرتضي السجن، فليس للشاعر من خيار غير الانتظار، وقبول الغواية"، يقول في مطلع نصه "كنت أعرف أن انحسار قميصك/ بدء الطريق/ وما قتله... وما/يتها المتواطئة انتشيري... إن عريك مغفرة/ وشذاك عرائش كرم... لعنت بنسا ولعينا/ أرى وجهك الآن بفرغ عن مدن وأراك تنامين كاطفل، تنبسمين/يتها الطفلة المتوحشة الآن أدخل بيت أبيك/ أخلع أبوابه/يتها الطفلة المتوحشة... الفقراء ينادون/ إنا غفرنا لها عريها/ وغفرنا لها كلما كان/ إن قيودك تسقط قبل الصباح كزهره اللون".

والسؤال الذي يتوارد إلى ذهن القارئ عندما يقرأ "يتها" بدلاً من "أيتها"، هل هي خطأ مطبعي؟ لكن من خلال التكرار يدرك أن الجواب عند الشاعر. يقول سعيد "بعد شطري المفتوح (كلما راودته القصيدة أوقفتها على بابها ليلتين) الذي يتحول إلى مقطع يهدد لصعود التجربة ليس بالنقاط/ علامات انتهاء المقطع/ بل بالتوقف اللحني الحاد، والدخول إلى عمق التجربة بالنساء، إن حذف الألف من أيتها وإبقاء يتها فقط ليس مجرد لعبة شكلية تعتمد جوازاً لغوياً، بل هو استدراك لتجاوز ذلك التوقف اللحني الحاد في النون الساكنة، وتحقيق وحدتين الأولى موسيقية، والثانية في بناء النص".

ولنا أن نتمساعاً: لماذا غفر لها الفقراء عريها؟ يجب سعيد "إن الإشارة إلى التي غفرنا لها عريها، وغفرنا لها كل ما كان، ومن قبل معرفة الراوي بأن انحسار قميصها بدء الطريق، هو نمط تمييز من نمط التعبير عن السياسة". إنه وجع

ومن أين جاء الناس يافانين التعبير عن الفرح. ما زلت أذكر شخصاً طويلاً القامة، يرقص وسط الجماهير شبه عار، حاملاً سيفاً صغيراً لأمعاً. لا يلتفت إلى ما حوله وكأنه يمارس طقساً خاصاً به. هل كنت الصامت الوحيد. وقد وقفت في بداية شارع السعدون أتمل الناس وامتد بصري إلى جدارية جواد سليم ومن خلالها استحضرت تاريخ الوطن".

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر/ أما للهوى نهي عليك ولا أمر" رائعة أبي فراس الحمداني. لكن سعيد يضيف "إن عصي الدمع صارت عيناه تسحان الدمع غزيراً، ومن خلال الدموع رأيت كل الناس إنساناً واحداً. وكل الوجوه وجوها واحداً. ورأيت رموز جدارية جواد سليم تخرج من قيود البرونز الثقيل وتنزل إلى ساحة التحرير وتغيب في الزحام".

هل كان على حميد أن يكتب في هذه المناسبة العظيمة قصيدة انفعالية كما يفعل الكثيرون طالما القصيدة تنمرد؟ يقول "وفي حالات كهذه، نعرف أن النص الإبداعى يتكسى على شرف القصد، كما يقولون، فيتنازل عن شرطه الفني، وتتأخر النصوص بالشبه الإنفعالي". لكنه "حاول أن يوسع فضاء هذا الانتصار الكبير، وأن يترك أثراً شعرياً في أفق الفرح. وبين عصيان القصيدة واستمرار المحاولة والعصيان، جاءت هذه القصيدة".

قصيدة بعنوان "عن القصيدة". إنه الحوار المتجاج الصامت، والمعركة

كيف يترك العراق "وهو يقترن من الحلم الذي انتظرتة أجيال من العراقيين"، فكان "موزعاً بين الحزن والقلق والانتظار. أتمنى أن تسرع معركة التأميم، وأن تتباطأ أيام مغادرتي بغداد".

كان الصراع والقلق والاختناق والأسئلة والمشاعر كلها تحيئ في نفسه، إذ يشعر بأنه لا يستطيع السفر أواخر السفر. وفي الوقت ذاته كانت القصيدة بهذه المناسبة الجلية تتجاج في داخله وتمتع عليه.

يقول الشاعر عن قصيدته "يا لهذه المخلوقة الجميلة النافرة، كلما استكنتها في بيت الطاعة تمربت واختارت الغياب، فإن رضيت بغيابها أطلت بسحرها وأدخلت في حرائقها". ولعل غيابها -أو تمنعها- تجلبي في قصيدة "عن القصيدة"، إذ كان الخاض صعباً لأن ذلك أت من ضجيج الشعر في رأسي، قبل لحظة الكتابة، والذي يستمر أحياناً زمناً جدياً طويلاً".

ويرى سعيد أن هذه المعاناة يعبر عنها بالقصيدة المروادة لا القصيدة المنتمعة، فهي تشتعل في ذاته منذ الحدث الكبير، تاميم نطق العراق؛ تراوده، تضج حروفها في ذاته وتؤرقه، وكما كتب "كلما راودته القصيدة أوقفتها على بابها ليلتين"، وقال أيضاً "أيتها المتواطئة الآن أقدّر أن أتجاوز حراسك الألف، أن أستبيحك... أن أضع اسمك بين الذين يجيئون كالماء لا تسالي".

وتم التأميم، واسترجع النطق العراقي ووجه الوطني التقى بعيداً عن الشركات الاستعمارية، يقول الشاعر "وبصمت غادرت البيت، ووجدت نفسي في ساحة التحرير، لا أستطيع أن أقترن من حرائق الفرح تلك، وكيف عبر الشعب عن ذلك الموسم الثري. بغداد بكل ملايينها تدفقت إلى الشوارع، هتافاً ورقصاً، لأدري من أين خرجت كل تلك الطبول والرموز،

حميد سعيد، شاعراً وإنساناً، شكّل في الضمير الجمعي العراقي أيقونة محبة، لا يخفى تأثيرها على أحد، وامتد هذا التأثير والحضور إلى ربوع الوطن العربي، وربما إلى العديد من مراكز البحث في الجامعات الأجنبية. حوله كتبت العديد من المؤلفات التي لم تتوقف عند شعره فحسب.

للقصيدة، من الماضي والحاضر، من العربي والأجنبي، من الشفهي والمكتوب، من الواقعي والأسطوري، مما أسمع وما أرى، من الشعري والنثري. من كل هذه المرجعيات أفدت، وبها كلها".

ويضيف "إن مرجعيات الإبداع هي مرجعيات الحياة، ليس في الشعر فحسب، بل في جميع عناوين الإبداع، وإن من يحاصر أفق إبداعه بمرجعية واحدة سيكون بمنأى عن جوهر الإبداع". أخذ سعيد حروفه من بشر يعبق بالذكريات، من طفولة هائلة وشباب ثائر، وانتفاء ثوري متمرد، وذكريات غنية بالإصدقاء والمدن والقارات والحب والأحزان، يقول "يلخ على سؤال دائم: ما العلاقة بين الشاعر أي شاعر وقصيدته؟ هل القصيدة هي الوجه الآخر للشاعر؟" ويقول أيضاً، في كتابه الأقرب إلى السيرة الذاتية "البحث عن أسرار القصيدة 1988"، "حاولت الإحياء بعلاقة ما بين السيرة الذاتية للشاعر والسيرة الذاتية للقصيدة في كتابي "الكشف عن أسرار القصيدة" وعلاقتها بالمكان في كتابي الآخر "المكان في تضاريس الذاكرة". فهل تختلف سيرة القصيدة عن سيرة الشاعر إن لم تكن إلا نبضه الحقيقي يتجلّى في الحروف؟".

ويضيف "عبر عقدين من الزمن، عمر تجربتي في كتابة النص الذي أريد وانتظار النص الذي يأتي، أخذت أعماراً وتواريخ، أحداثاً وثقافات، مدناً ووجوها، أسماء وملامح، نساء وقصائد".

إن الدخول إلى عالم حميد سعيد ليس سهلاً؛ فكل باب تلجسه تهب من حوله روائح الياسمين والقرنفل والبنارنج والبريق، سواء كانت في بساتين الحلة أو بغداد أو قرطبة أو غرناطة، "وتحنو عليك شجرة الصفصاف"، فتقف بالتالي ماخوذاً بضع حروفه الشعرية والنثرية. ولكن خلف الأبواب يقف العراق، وتقف بغداد بناورها ولهيبها، وما خلفه الاحتلال من دمار وحزن وكثير يدخل في "غابة الرماد".

عن معضلة القصيدة التي تأتي ولا تأتي يقول سعيد إنه "ليس أقدّر على القصيدة من المشاكسة"، خاصة إذا ارتبطت بزخم وطني جماهيري عارم، رغم أن القصيدة تمنعت في مواقف كثيرة لديه.

كان الحدث عظيماً، والجماهير العراقية تدفقت عن بكرة أبيها إلى ساحة التحرير في بغداد حين أعلن العراق في بداية عام 1972 عن قراره تأميم نطق العراق، واستعادة الحقوق الوطنية المغتصبة. كان سعيد أثناءها يجرم حقايبه استعداداً للسفر إلى مدريد مقر عمله الجديد. فكان السؤال:

زيد الحلبي  
كاتب عراقي

العطاء الذي قدمه الشاعر العراقي حميد سعيد طوال مسيرته لم يقتصر على جنس أدبي واحد، بل تعداه إلى البحث الأدبي والمقالة الصحافية والدراسة الرصينة التي تزيل الغبار عن الغواض في شتى صورها، وصدرت له عدة كتب في المناحي التي ذكرت، وأعيد طبع البعض منها أكثر من مرة، إلى جانب دواوينها التي تحظى بمتابعة جماهيرية واسعة.

مؤخراً أنهيت مطالعة آخر كتاب صدر عن حميد سعيد، من تأليف الناقدة إنصاف قلجعي بعنوان "تطواف في حدائق المورييسكي عن الشاعر حميد سعيد".

ضم الكتاب عدة فصول وأبواب منها "معضلة الكتابة" و"لم يبق أحد في البابين" و"المورييسكي... الذي لا يتعب" و"محاورات حميد سعيد في أولئك أصحابي" و"ما تأخر من القول... ليس نهاية القول" و"إطلالة عبر شبابيك حميد سعيد الجديد".

وحسناً فقلت الكاتبة حين قالت في مقدمتها: لا يحتاج شاعر كبير مبدع مثل حميد سعيد إلى مقدمة للتعريف به، فقد وجدت عشرات الكتب والدراسات حول تجربته الشعرية الثرية، فإن كتبت عن الشاعر حميد سعيد يعني أن تضع أصابعك في جمر حرائقه واشتعالاته، وتدخل في أزقة لا تعرف منها خروجاً، وقضاعات تبهرك بنورها وتوهجها.

ففي كل ركن اعتزل فيه الشاعر، وما كانت غزلة يقدر ما كانت ضجيج الروح، ترى بحدسك أشخاصاً ومقاهي بغداد ووجوها من الحلة وقادة عسكريين ومدنا صاحبة وأنهارا وصيابين وطفلاً يضح بالأسئلة في طرقات الحلة، وجوها تحسها دون أن تراها، فحركة الحياة هناك مستمرة في ذاكرة هذا المورييسكي الذي لا يتعب... وعائسى من غربة المورييسكيين الذين طردوا من غرناطة وفرطية كما غربته منذ احتلال العراق وتدميره.

## معضلة القصيدة

تجربة الشاعر حميد سعيد تجربة حياتية وإبداعية فرية بما تشمله من قراءات متنوطة وسفر عاشه بكل غناه من أناس وثقافة وأماكن متنوعة وتاريخ حضاري منذ نشأته في العراق، ثم التزامه المطلق بقضية فلسطين، ثم إسبانيا ثم المغرب. يقول سعيد "منذ البدايات، وما زلت أشعر، أبواب الحياة وتوافدها،

## قصائد السرد والصورة

في كتابه الجديد بعنوان "الشعر والسينما.. أبنية الصورة والسرد.. تجربة عز الدين المناصرة" يبحث الناقد يوسف يوسف في تجربة الشاعر الفلسطيني عز الدين المناصرة.

ويرى الناقد في كتابه، الصادر عن دار خطوط وظلال دراسة، أن الحديث عن عملية التحضير باستخدام الأسطورة، إنما هو حديث عما يعرف بالقوى الدافعة للنص الأدبي، التي هي نفسها في تسمية أخرى القوى المحركة، التي يرتقي النص بسببها إلى المكانة المرموقة. صحيح أن شعراء كثيرين ذهبوا باتجاه تخصيص تصويهم بالأساطير، وذهب آخرون باتجاه تخصيصها باستحضار فقرات أو شخصيات من تاريخ الشعوب التي ينتمون إليها، لكن آخرين سواهم ذهبوا باتجاه تخصيصها بالسرد مرة وتخصيها بالصورة مرات أخرى، وإن لم يتخلوا في الوقت نفسه عن استخدام ما سبق ذكره من المحركات. وعز الدين المناصرة واحد من هؤلاء الآخرين، الذين يمكن القول فيهم بأنهم إنما يفعلون ذلك ليس فقط لارتقاء بالنصوص الشعرية التي يكتبونها فقط، وإنما لإيصالها إلى الكونية أيضاً.

## هزيمة الموت

في ديوانه "مجاز الماء" الذي صدرت طبعته الثانية مؤخرًا عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، يقدم الشاعر المصري سامح محبوب رؤية فنية وجمالية للعالم انطلاقاً من التفاصيل اليومية البسيطة، وانعكاساتها في المخيلة الجماعية، وتماسها مع الأساطير والأفكار الكبرى الراسخة في الوجدان.

بداية من القصيدة الأولى يبرر الشاعر الغرض والهدف من الكتابة "أكتب كي أهرم موتي"، لتصبح الكتابة في أيه تجلياتها رديفاً للخلود. وتنهال الصور الشعرية في إيقاع محكم منضبط ذي حس مأساوي في أغلب الأحيان، ليتمثل من خلال تلك الصور العذابات البشرية الفكرية والوجدانية والعاطفية والمادية. ورغم تنوع العذابات وكثافتها وامتدادها عبر القصائد وكأنها تعبر عن مأساة الإنسانية عبر العصور، إلا أن الحس العاطفي والإيرونيكي يتسلل بين حين وآخر إلى القصائد عبر صور أخاذة ليخلق مفارقات غرائبية، هي أبنية الحياة اليومية، كان الشاعر يسعى إلى أسطرة الواقع أو وقعة الأسطورة بطريقة فنية يتمزج فيها الخيال مع الإيقاع مع التوستالجيا.

## امرأة تحب وتتأمل

على عكس ديوانها السابقين اللذين احتفت فيهما بالثنائيات المتضادة، الريح والظل في العمل الأول، والماء والموت في العمل الثاني، تفتح الشاعرة المغربية عائشة بلحاج في ديوانها الجديد بعنوان "لا أعرف هذه المرأة" على معجم الحياة والموت من دون حدود.

و"لا أعرف هذه المرأة" الصادر عن "دار الآن/ ناشر وموزعون" في عمان هو الديوان الثالث في سيرة بلحاج بعد "ريح تسرق ظلي" (منشورات بيت الشعر)، و"قبلة الماء" (دار روافد المصرية). تلفتنا في الديوان عناوين عديدة، مثل: سنزهر، خضراء، كأننا العطر نفسه، امرأة بريّة، رجل غريب عبر حياتي، بومة، كان الذي يبننا حروب وادخنة، فرصة عمل، تشريح جثة حية، لا يحتاج البحر إلى سفن. وهو ما يؤكد المسار الذي حاولت الشاعرة المحافظة عليه على غرار شاعرات عربيات كثيرات، ألا وهو الوقوف في منطقة وسطى بين عاطفة المرأة وعلاقتها بالرجل والتاملات في الواقع وما يطرا عليه من أحداث تثير أسئلة وجودية عميقة.

## رف الكتب

